غرفة غير مستعملة

قصة بقلم سركون بولص

اوقف يوسف حركة يديه فجأة ، وانصت . كان يسمع صوت الحذاء النسوي بوضوح ، اذ يقرع الدرب الاسمنتي : ترك ـ تراك ، ترك ـ تراك. رالقى من يده القفاز المطاطي الذي كان يتلهى بأن يضع اصابعه الخمس الصفراء بين فكي المقص ويضغط عليهما بحركة واحدة متدرجة ، فتثبتر الاصابع ، في بطء وتثال . وكان قد وجد فردة القفاز هذه في قعر صفيحة فارغة . وانحنى فجمع رؤوس الاصابع المفصوصة من الارض ووضعها على المنضدة الحديدية بجنب القفاز . تلاشى صوت الحذاء ، وغطست الغرفة في الهدوء العميق الذي يلف مبنى المستشفى وقت النهار . كان ثم ذبابات تئز محبوسة بين زجاج النافذة والشبكة السلكية ، والشمس رخوة تتدلى وتنتشر على ساحة الحديقة كطبقة من الجلاتين الحار .

نظر من النافذة ، فرأى روزيت تتحدث مع الطبيب الانكليزي الكهل الذي يحمل بين يديه كراسا باسماء المرضى . وتنحى يوسف عن النافذة . كانت السيارة التي تحملهم الى المستشفى قد توقفت بهدوء امام بيت روزيت ، هذا الصباح ، بعد ان نفر السائق على المنبه مرة واحدة . وخرجت روزيت بعد لحظات ، دافئة لا تزال من فراشها ومفعمة بشهوة صباح مشمس ، واقتربت من السيارة ثم التقت نظرتها بنظرة يوسف الذي كان قابعا خلف زجاج نافذة السيارة يرقبها باعتناء . منذ البارحة بدأ يجد صعوبة كبيرة في ان يواجه نظرة هذه الفتاة . وكان ، طيلة فترة الصباح ، ينتظر ان تفاجئه بنظرتها المقلقة . وقد انتهى من جولة العمل الاولى في قاعات المستشفى ثم اسرع فاختلى في هذه الغرفة . ولم يذهب الى غرفة الجلوس ، حيث تستريح الفتيات العاملات في التنظيف واحيانا الكناسون . وظل في هذه الغرفة اكثر من عشر دقائق راقب خلالها كل شيء . كان فيها مقعد محطم ومنشار معلق بمسمار فوق مفسلة بيضاء يغطيها التراب ، وكان جو الغرفة معتما والسقف الضارب الى الاخضرار مشطورا في الوسط من اثر المطر . وكان قد وجد فردة القفاز ثم فتش عن الفردة الاخرى ، فلم يجدها . واشعره ملمس المطاط بخور . ثم امتلأ غثيانا حين حشر يده في داخل القفاز الضيق وبدت ، وهي مفتوحة متوترة الاصابع ، كسرطان ابيض مقلوب خرج عن طوره في محاولة مستميتة للانتصاب على قوائمه الخمس. وكانت اصابعه تشف من خلال المطاط الاصفر الرقيق بشعراتها السوداء التي لاحظ ، لاول مرة ، انها تنتشر على شكل مجموعات متساوية فوق السلامية الاخيرة من كل اصبع ، وان ابهامه يتكون من سلاميتين فقط . احس برغبة في الخروج . وكان قد حاول ان يفتح النافذة ، ولكنه وجد صعوبة في ذلك ، وبدت محاولته هذه غريبة نوعا ما حين ادرك ان النافذة مسمرة .

خرج ببطء الى الحديقة التي تتخللها ممرات ضيقة من الاسمنت. وانعطف حول هيكل الغرفة ، فوجد روزيت امامه مباشرة . ولم يكن بارزا فيها غير عينيها السوداوين في هيكل من البياض : وجهها ، وعنقها ، وثوب العمل الابيض الذي ترتديه . وقال بفضول :

ـ ما الذي تفعلينه هنا ؟

فقالت : ـ اسمع . لنجلس في مكان ما . اريد ان احدثك قليلا .

قال يوسف : ـ اين ؟

فقالت : ـ في غرفة الجلوس ، انها خالية الان .

فوافق بهدوء ، وسار خلفها . مشيتها ، كان ذلك هو الذي نبهه اليها حين جاءت لتعمل في المستشفى قبل سنة : مشيتها . كانت ساقاها ممتلئتين بيضاوين وفيهما تقوس طفيف جدا يعطيهما طابعا جنسيا غريبا . وكان خصرها الضيق الذي يتبعثر تحته مباشرة فخذان راسخان لهما حركة سرية مترجرجة ـ وركبتاها اللتان تظهران من تحت الثوب بفعل حركة ردفيها الجانبية ذات الايقاع الواحد ، كل ذلك كان قد جعل يوسف لا يستطيع ان يتمالك نفسه . وكان ذات مرة قد حاول ، بعد ليلتين مؤرقتين فضاهما بالتفكير والتمثيل ووضع الخطط والاستبشار السابق لاوانه بقصة حب ناجحة ـ كان قد حاول ان يكلمها . وبدا ذلك عسيرا جدا وهي الى جانبه . وقد فشل فشلا ذريعا حين حاول ان يحضنها فدفعته عنها بدهشة اولا ثم باشمئزاز . وخرجت ولم تشجعه قط على الاقتراب منها بعد ذلك اليوم . في كل صباح كانت السيارة الطويلة تقف امام الباب الذي تعيش خلفه روزيت ، وكان يوسف يعيش هذه اللحظة بخبال وافراط . كان يدفع بكتفه زجاجة السيارة هائجا حتى ليفكر بأنه سيسمع صوت تحطم الزجاج في اية لحظة . وتخرج ، فيلتهمها يوسف وتتحرك السيارة . كان يعرق في جوف العربة المصنوعة على هيئة قبر ذي عجلات ، وهو يمر خلال هذا كله ، صباحا بعد اخر . ثم يسترخي ، ويبرد . كان ذلك شبيها جدا بالحالة التي انتابته حينما ضاجع لاول مرة المرأة الوحيدة التي نام معها في حياته كلها ، وكانت بغيا مذعورة . وبعد شهور ايقن انه يجب ان يفعل شيئا حاسما . ولكنه كان يقف امام الفتاة شاعرا بانه لم يتمم شيئا ما ، شيئا ضروريا تركه وبدونه لن يحدث أي شيء البتة . ثم بدأ يقوم بفعل غريب . كان ينتظر في حرارة الصيف وفي الدبق ساعة كاملة احيانا ، خلف نافذة الغرفة المهجورة التي لا يدخلها احد . وتخرج روزيت فينتظر قليلا ثم يتعقبها وهو شبه مذهول . ودخلت مرة الى دورة المياه فاقترب من الباب وقد ارهقته الدفقة الهائلة من السكر التي ملأت رأسه ورجليه الرخوتين . وانحنى ، فوضع عينه على ثقب المفتاح .

كرر ذلك فيما بعد . ورفع رأسه ، ذات مرة ، عن الثقب فتسمر في مكانه . كان مريض عجوز يقف على بعد منه ، يراقبه بهدوء . واجفل فاندفع خلف المبنى واسرع الى الغرفة المهجورة حيث وقف يرقب العجوز من خلف النافذة وهو يلهث . وطفق العجوز يتنزه . وكان في الايام التالية يمر من بعيد فيرى العجوز مضطجعا في سريره يتأمل المروحة البطيئة التي تشق هواء الغرفة المثقل بروائح الادوية والبول والصابون. وقد فكر بأن يسممه ولكنه فكر ايضا بأنه مجرد ممرض وشبه خادم ، فأزاح الفكرة الى جانب . واكد لنفسه فيما بعد ان الرجل العجوز شخص شبه مجنون من تأثير المرض ، او انه يعيش في غيبوبة . ولعله كان غائبا عن الوعي حين رآه . وربما كان لم يره قط .

على ان كل شيء سقط عن موضعه وامتلأ يوسف يأسا وغيظا حين ظهر هذا الشاب ، في احد ايام الخريف الماضي ، ورآه يوسف يتحدث مع روزيت . وظهر للمرة الثانية في موعد دخول الزوار ، وولج مع روزيت احدى الغرف الخلفية . وذهب الزوار جميعا . ولم يره يوسف يخرج ، فبدأ يشعر بأنه في موقف تافه : كان قد اصفر وبدأت اصابعه ترتعش قليلا ، ورأى ذلك بوضوح حينما اراد ان يدخن سيجارة . واستدعي الى العمل فلم يعلم متى خرج الشاب . واخذ هذا يأتي بين يوم واخر .

وخلال شهور الشتاء الاولى هذه بات اكثر الممرضين والفتيات والممرضات انفسهن على علم بالعلاقة . وحاول يوسف ذات مرة ان يقبل خادمة كانت وحيدة معه في الغرفة ، وكانت ارملة شابة لها صبي واحد غالبا ما تستصحبه معها . واخذ يهذي بأنه سيتزوجها ، محاولا اثناء كلامه ان يعانقها . وكانت الارملة مذعورة تترك له صدرها وقد تسمرت

عيناها في الباب . ثم كف عن محاولاته اليائسة حين اجفلت منه اذ رأته يرتعش شاحبا ويهتز بتشنج . وقالت باضطراب وهي تصلح من شأنها :

ـ ماذا .. حدث ؟

فلم يجب ، وظل يحدق في اصابع يديها وهي تزرر من جديد مكان النهدين . وبقي في الايام التالية يتجول منفردا . وكان قد اكتفى بتلك العملية الصغيرة التي يمارسها مع روزيت في كل صباح: انتظاره المبهظ وضغطه على زجاجة السيارة بفته ، والتهام ذلك الجسد الابيض الخارج الى الصباح حاملا معه روائح فراش دافيء ، ثم الهدوء واللامبالاة والمضي في العمل القذر ببلادة وعدم الشعور بالزمن والسقوط في زاوية مشوشة من التفكير الحيواني ممتزجا بأحلام غير واقعية عن نساء شبقات يحطن به ويستسلمن له ، وروزيت الراكعة ، عارية ، في غرفة لا تضم غيره وغيرها .

الارض اللامعة : كانت صورتاهما ، في لحظة خاطفة ، قد تشابكتا والتحمتا في ارض الغرفة اللامعة النظيفة . وقدماها المعلبتان في حذاءيها ، اشعره منظرهما بحاجة الى فتح شيء ما ، فتح قنينة ملأى بالغاز المضغوط تنفرغ بعد ذلك وتخلو من ايما محتوى . وقالت بلطف :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فقال دون ان ينظر اليها : ـ ماذا تقصدين ؟

قالت بفتور : ـ تعرف ما اقصده جيدا .

قال : ـ انني لست افهم .

فواجهته لاول مرة .

ـ اسمع ، ارجوك ان لا تكذب . انك انت الذي اخبر الشرطي ، أليس كذلك ؟

قال يوسف : ـ أي شرطي ؟

وتظاهر بالبله . ولكنه كان في دخيلته مسرورا بعض الشيء ، وبغموض ، من كل ما يجري . من استجدائها له ومحاولتها استشفاف الحقيقة من كلامه المماطل . فليستمر ، اذن . وهز رأسه . صمتت ، ثم بدأت الدموع فجأة تتسرب من احدى عينيها وترطب خدها . قال بصعوبة : ـ انني لا اكذب .

فقالت وهي تبكي بكاء شديد الهدوء :

ـ انك تكذب . ولا ادري ما الذي ، ما الذي ..

واجهشت . ثم اكملت :

ـ ما الذي تريده مني ، اريد فقط ان اعرف هذا .

ومسحت وجهها بمنديل انيق لفت انتباهه .

ـ ثم ألم تخجل ؟ ان احدا لا يفعل هذا ، الا اذا كان سافلا . ماذا فعلت لك ؟ هل لانني صددتك في تلك المرة ؟ ولكنني .

وضمت شفتيها بقسوة على اسنانها ، وكادت تختنق وهي تضع يدها على عينها اليسرى .

ـ « انني فقيرة و ... »

فقال يوسف بصوت اجش :

ـ انني فقير ايضا .

ـ واعرف جيدا انك لا انت ولا غيرك سيتزوجني ، طالما كانت هذه..

وضغطت بيدها على عينها الصناعية . فقال يوسف :

ـ ارجوك لا تبكي . قد يأتي احد ما .

وترك لها دقيقة تبكي فيها جيدا . وكان قد احس برغبة شديدة في الاتكاء على كتفها ، حين رأى كيف يميل عنقها الجميل على صدرها فيبرز البياض الدافيء الذي تحت الشعر . ونهض فجأة . قال معترفا :

ـ اسمعي . لقد كنت أنا .

واذ لم تأبه له ، قال بتهور :

ـ انني اكرهه لذا لم استطع ان اتحمل اكثر من ذلك .

فقالت بصوت معول دون ان ترفع رأسها :

ـ ولكن ماذا فعل لك ؟ ماذا فعلت انا ؟

واضاف يوسف : ـ وعلى كل ، فانني لست بقواد .

وانتظر . كانت قد جمدت ، خافضة الرأس ، وسط محاولة لتجفيف قاعدة خدها . ثم قال وهو يحس بانه مذنب وبان شيئا اخر كان يجب أن يحدث بدل كل هذا .

ـ لماذا لم يكن يخرج كسائر الزوار ؟ واذا أردت أن تقابليه في اي مكان اخر فماذا يهمني ، حقا . افعلي ما تشائين . ولكنني ، في وجوده هنا ، لا استطيع القيام بأي عمل .

رفعت رأسها باستنكار . فقال مغتاظا :

ـ نعم ، لا استطيع . لذلك اخبرت الشرطي . قلت له ان احد الزوار قد تخلف . فجاء وطرده . وسوف ينتظر خروجه منذ الان ، طالما هو قد عرفه ، مع بقية الزوار . واذا لم يفعل ..

كانت تراه بعينين واسعتين . وقطرة على انفها ، دمع دافيء . فمها المنفرج ، وصدرها المضيق عليه بسبب الثوب المشدود ، كانت تثيره جنسيا بشكل غير مفهوم .

وقالت بعد ان مسحت وجهها :

ـ اذن ، ايها القذر . انك ..

واعماها حقد شاذ ، واشتبكت اسنانها بكلماتها فاختنقت واجهشت تبكي بكاء عميقا . ولاحظ بياض عنقها مرة اخرى . ثم واذ كان يفكر بنفسه وقد ارضاها لا يدري بأية وسيلة او بأي شيء ، وتعانقا فاتكأ اخيرا على كتفها وبدأ يقبل عنقها بهدوء ـ اذ كان يفكر هكذا ، نهضت الفتاة فجأة وصفعته بوحشية ثم خرجت بسرعة وتلاشت . بقي واقفا في الغرفة ، وحده ، يصغي باستغراق للرنين الذي يطن في اذنه .

***

حين دخل المنزل ، كان ابوه يطبخ للعشاء . ثم فرغ من ذلك وبدأ يمسح ارض المطبخ بهمة شديدة . وخلع يوسف ثيابه بأناة ، ثم جلس يراقب اباه . كان المطبخ دافئا فكانا يقضيان وقتهما فيه : يأكلان ويتحدثان ويسمعان الراديو . وقال يوسف :

ـ ماذا طبخت اليوم ؟

فأجاب ابوه وهو يلهث :

ـ فاصوليا . ثم هناك الفاكهة . ولبن ايضا .

قال يوسف بضجر ساخر :

ـ اطبخ شيئا اخر غير الفاصوليا .

فتساءل ابوه وقد كف عن عملية المسح : ـ اي شيء ؟

ففكر يوسف . ثم قال : ـ لا شيء .

وفتح الراديو . وانتهى الاب ، فجلس يدخن سيجارة بانتعاش . واخذ يسأله عن الاغاني باهتمام . ثم اصغيا الى نشرة الاخبار في غشاوة من الصمت . وبقيا يتأملان السقف واحيانا الاثاث المنتصب بجمود لا تطاله حركة . ثم استفسر الاب قائلا :

ـ من هذا الذي يغني ؟

فأجاب يوسف بوقار : ـ انه عبد الوهاب .

قال ابوه باستغراب : ـ ولكن هذه اذاعة بغداد ؟

فأجاب قانطا : ـ بالطبع .

قال الاب : ـ وهو لا يعيش في بغداد ، كما اعلم ، واذن ؟

فنظر يوسف اليه ببطء . تأكد لديه ، للحظة ، شيء غريب : كان ابوه يفكر بأن أي مغن في أية اذاعة يغني شخصيا في كل مرة ، اي انه موجود دائما تحت الطلب . ولم يخطر بباله مطلقا ان الاغاني مسجلة على اسطوانات او اشرطة او اي شيء اخر .

وضحك ، فرأى اباه يضحك باستمتاع هادىء . ثم لم يستطع ان يحتمل اكثر ، فأخذ يعوي بالضحك وكأنه يطعن ، مما اقلق والده فسأله وهو يضحك بتردد وانزعاج : ـ حسنا ، ماذا دهاك ؟

حين اضطجع يوسف في فراشه البارد كانت صورة روزيت تأخذ وجوده برمته . ونظر في عينيها وشاركها حزنها وافكارها وكراهيتها الجميلة له وغثيانها من حضوره . ثم رآها تخلع ثيابها ويقترب منها خلسة ليحتضنها من الوراء ، وتمد يدها الى عينها وهي تضحك باغتباط ، ثم تعيدها الى المنضدة وفي قبضتها العين الصناعية الجامدة. وفجأة تستدير اليه وهي تضحك بخلاعة واحد محجريها فارغ ، صار كردهة مضاءة .

بغداد

سركون بولص